مـجلـــة بـدايـــات
Email :bidayat@lagh-univ.dz Revue :Bidayate ISSN: 2676-198X
المجلد: الخامس(05) /العدد: الأول(01) /جانفي 2023 /ص ص: 84-94

تجليات الدرس البلاغي العربي في اللسانيات الحديثة والمعاصرة

The manifestations of the Arabic rhetorical lesson in modern and contemporary linguistics

بومقواس محمد

Boumegouas Mohammed

مخبر اللسانيات التداولية وتحليل الخطاب-- جامعة عمار ثليجي بالأغواط(الجزائر)
البريد الإلكتروني:med.boumegouas@lagh-univ.dz

تاريخ الإرسال:03-10-2021	تاريخ القبول:07-01-2022	تاريخ النشر: 14-01-2023

مُلخّص البحث

نسعى في هذا المقال إلى بيان مواضع التناظر بين التراث اللغوي العربي، وخاصة البلاغي مع ما قد يكون مكافئا معرفيا له في اللسانيات الحديثة والمعاصرة، كالتداولية ولسانيات النص وغيرها ،فمع ظهور الإسلام أثبت علماء العربية مبكرا تفوقهم في شتى المجالات وخاصة البحث اللغوي الجاد، ومنه الدرس البلاغي المرتبط أساسا بالإعجاز القرآني، إذ نجد أن أغلب أبحاثهم تطرَّقت لنظريات تعد الآن من أحدث ما توصل إليه البحث اللساني الحديث والمعاصر من جوانبَ متعددة، وما ذلك إلا بفضل القرآن الكريم الذي هو منطلق ومركز كل العلوم، فكان السعي الحقيقي لعلمائنا هو فهم كتاب الله العزيز، بفهم نظامه المعجمي والنحوي والتركيبي من أجل الوصول إلى المعاني بفهم الدلالات الحقيقية والمجازية، فكان القرآن الكريم يفهم بما تم جمعه في البيئة الأعرابية الخالصة، ليتحقق حفظ هذا اللسان العربي من اللحن والخطأ، وبالتالي حفظ القرآن من التحريف، فظهرت الدراسات التي تبحث في النحو والصرف وصولا إلى إعجاز القرآن الكريم، ومنه إلى البلاغة التي من خلالها يصل المتكلم إلى تحقيق الإبلاغ والفائدة، فكانت بحوث علمائنا توازي نفس القيمة المعرفية التي وصل إليها علماء الدرس اللساني المعاصر، ومنها اللسانيات التداولية، لسانيات النص، وغيرها، فالدرس العربي القديم هو مكافئ معرفي يكاد يطابق الدرس اللساني المعاصر، ولقد تحقق هذا السبق المعرفي لعدة قرون.

الكلمات المفتاحية : تراث بلاغي، تداولية، لسانيات النص.

Abstract:

In this article, we seek to clarify the points of analogy between the Arabic rhetorical heritage ,and modern linguistics, such as pragmatics, text linguistics, The rhetorician is mainly related to the Qur'anic miracle, as we find that most of their research touched on theories that are now among the latest findings of contemporary linguistic research from various aspects, and that is only thanks to the Holy Qur'an, which is the starting point and center of all sciences, so the real quest of our scholars is to understand the coran, by understanding his lexical, and syntactic system in order to reach meanings by understanding the real and figurative connotations, so the Holy Qur'an

المؤلف المرسل : **بومقواس محمد البريد الإلكتروني:med.boumegouas@lagh-univ.dz**

understood what was collected in the pure Arabic, in order to achieve the preservation of this Arabic tongue from melody and error, and thus preserving the Qur'an from distortion. and morphology to the miraculousness of the Noble Qur'an, and from it to the rhetoric through which the speaker reaches the achievement of reporting and benefit, so the research of our scholars was equivalent to the same cognitive value that he reached on the The water of the contemporary linguistic lesson, including pragmatic linguistics, text linguistics, and others.

Kayswords: rhetorical heritage ,pragmatic, linguistics Text

1مقدمة :

حظيت البلاغة العربية بحظ وافر من مجهودات الدارسين و المهتمين بالتـراث العــربي و العاملين في مجال الدراسات المعاصرة، على حد سواء، فكانت المؤلفات تمس معظم الجوانب البـلاغية، فالمؤلفون لم يتركوا شاردة و لا واردة ، صغيرة أو كبيرة إلا أحصوها، فمنهم من اهتم بالتأريخ لها، وذلك من أمثال شوقي ضيف، ومنهم من انبرى يدرس مصطلحاتـها و علاقاتها بغيرها، وآخرون كان جهدهم وقفا لاستظهار أوجه نشاطاتها كالإعجاز و التفسير و النحو وغيره، فالدراسات البلاغية تكتسي أهمية بالغة من خلال تأثيرها و تأثرها بالدراسات اللسانية، فالدرس اللساني لدى البلاغيين يتجلى في التقائه مع البلاغة العربية في كثــير من الجوانب و المفاهيم خاصة الإجرائية منها، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر نذكر نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، و نظرية التواصل عند الجاحظ، و الحجاج عند حازم القرطاجني، و غيرهم، فالإقناع الحجاجي و الإمتاع الأسلوبي كان علامة فارقة مميزة في عمل اللغويين جميعا والبلاغيين على وجه التحديد، لذا فالبلاغيون كانت جهودهم اللسانية تتوزع ما بين دراسات بنيوية و دراسات تداولية حجاجية، و دراسات أخرى تهتم بطرق و أشكال التواصل اللغوي، وكان الواحد منهم يجمع كل هذه التوجهات، على اعتبار أن العالم في عالم الإسلام كان موسوعيا

ومن هذا المنطلق نطرح تساؤلات كثير منها : هل عرف البلاغيون القدامى دراسات لسانية بشكلها الحالي ؟ ما مدى تأثير البلاغة العربية على الدرس اللساني المعاصر؟ لنصل إلى إشكالية البحث التي نصوغها على النحو التالي: فيم يتجلى الدرس اللساني المعاصر لدى البلاغيين العرب ؟.

للإجابة عن هذه الإشكالية سنعتمد المنهج التحليلي و التاريخي المقارن، و هذا بالكلام على نشأة اللسانيات الحديثة في الغرب، ونذكر فيه جهود الأوربيين وخاصة دي سوسير، و الأمريكيين وعلى رأسهم بلومفيلد، ثم جهود البلاغيين في لسانيات النص و كذا التداولية، ونذكر منهم عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم، و الخطاب التداولي لدى السكاكي، حيث يتجلى الدرس اللساني التداولي في كتاب "المفتاح"، وبعدها نظرية التواصل عند الجاحظ الذي يبرز في فكرة الفهم و الإفهام، لنصل إلى خاتمة تكون لبيان أهم النتائج المتوصل إليها.

2: نشأة اللسانيات الحديثة في الغرب:

بدأ الدرس اللساني الحديث في الغرب بالثورة على المنهج التاريخي في دراسة اللغة الذي كانت له رؤية معيارية قتلت روح اللغة ،هذه الثورة كانت على يد دي سوسير .

إن لسانيات دي سوسير مثلت قطيعة منهجية في تناول الظاهرة اللغوية، فقد بيَّن أن موضوع علم اللغة الوحيد و الحقيقي هو اللغة في ذاتها و لذاتها فهي اللغة التي يُنظر إليها كواقع قائم بذاته، يبحث فيها لذاتها، فاللغة عند دي سوسير "ليست مجرد آلة مادية صوتية بل نظام به كنز لغوي مشترك"[1] فموضوع اللسانيات هو اللغة، فنجد دي سوسير يقول :«إن الموضوع الوحيد للسانيات هو اللغة من أجل ذاتها و لذاتها»[2].

أما عن نشأة الدراسات اللسانية في أمريكا على يد الفيلسوف و اللغوي "فيرث" الذي يرى وجوب اجتماع عوامل عديدة ليتشكل المعنى، أولها السياق بمفهومه الواسع الذي يشمل السياق الصوتي و الصرفي و المعجمي والتركيبي و كذلك الدلالي في إطار اجتماعي، فالمعاني تتعدد بتعدد المواقف الاجتماعية و الأحوال المحيطة بالمتكلم.

بعد ذلك سيطرت البنيوية الوصفية على مجال الدراسات اللسانية، خاصة على يد الأمريكي بلومفيلد الذي ينتمي للمدرسة السلوكية التي تعتبر اللغة مجرد عملية آلية .

3-اللسانيات النصية:

تعد البداية الحقيقية للسانيات النصية على يد فندايك VAN DIJK إذ يقول : « لقد توقفت القواعد و اللسانيات التقليدية غالبا عند حدود وصف الجملة، وأما في علم النص فإننا نقوم بخطوة إلى الأمام، ونستعمل وصف الجمل بوصفه أداة لوصف النصوص ، وما دمنا نستتبع هنا المكونات المعتادة للقواعد ، ونستعمل النصوص المستخدمة بغية وصف الجمل ، فإننا نستطيع أن نتكلم عن قواعد النص »[3]، فاللسانيات النصية حقل معرفي يدرس الخطاب بكل ملابساته ومقاماته والملفوظ والتلفظ ، و قد نشأت على أنقاض لسانيات الجملة.

3-1 مفاهيم اللسانيات النصية:

-**النص** :تعددت تعريفات النص ، وتنوعت حسب مبادئ كل اتجاه فقد عرفه رولان بارث بقوله: « النص نسيج كلمات منسقة في تأليف معين بحيث هو يفرض شكلا يكون على قدر المستطاع ثابتا ووحيدا ... إن النص من حيث إنه نسيج فهو مرتبط بالكتابة ، ويشاطر التأليف المنجز به هالته الروحية وذلك لأنه بصفته رسما بالحروف فهو إيحاء بالكلام ، وأيضا بتشابك النسيج»[4] إذا فهو نسيج من العلامات اللغوية .

-**الخطاب** :عرفه باختين بقوله : «هو فعل مطبوع يشكل أحد عناصر التبادل اللفظي ، إنه موضوع نقاشات فعالة ، تتخذ شكل الحوار ، وهو موضوع بالإضافة إلى ذلك لكي يدرس بعمق ويعلق عليه في إطار الخطاب الداخلي » [5] .

3-2 معايير النصية[6] :

يقترح روبرت دي بوغراند سبعة معايير تجعل النص نصا أو تفقده نصيته إذا ما غاب عنصر منها وهذه المعايير هي:

أ -السبك: : يتحقق به النظام بشكل جلي ، بحيث يؤدي السابق منها اللاحق ، ومن خلال وسائل النظام التي تتمثل في الربط خاصة والتكرار، لذلك فإن النظام يتعلق بالترابط الوصفي وهو معياره، أو ما يطلق عليه بالاتساق وحده هو ذلك التماسك الشديد بين الأجزاء المشكلة لنص الخطاب ، ويهتم فيه بالوسائل اللغوية(الشكلية) التي تصل بين العناصر المكونة لجزء من الخطاب أو الخطاب برمته.

و حدد هالداي الوسائل التي تضمن اتساق النص أهمها:

-1 السياق :مقامي و مقالي.

2-الإحالة :وتنشأ من استخدام الضمائر ، فإذا وردت في بداية الفقرة فهي قبلية وإذا تأخرت فهي بعدية.

-3 الروابط :وهي أقسام ثلاثة : نحوية ، معجمية و صوتية .

ب- الانسجام : تشمل وسائل الانسجام العناصر المنطقية ، كالسببية والعموم ، حين تتفاعل معلومات النص مع المعرفة السابقة للعالم، وإذا غاب الانسجام انهار الاتصال بين نسيج النص ومتلقيه وهو معيار الترابط المفهومي بين النص .

ج -القصد :يتضمن موقف منشئ النص وهدفه بناء نص متماسك منسجم ، لأنه لابد أن يكون للحدث اللغوي نية الدلالة ، فليس نصا ما يقوله المكره أو السكران مثلا

د- المقبولية: يتعلق بالمتلقي وقبوله للنص أو عدم قبوله فيما يتعلق بالتماسك والانسجام بصفة خاصة ، والخضوع للقواعد النحوية بصفة عامة ، ويقوم علم النص على مساعدة المتلقي لقبول موقف دلالي محدد واستبعاد باقي الدلالات ، لأنه يهتم بالسياق كله لصحة القواعد النحوية ، لذلك يكون القبول على مستوى الجملة ثم يتعدى ذلك إلى مستوى النص كله.

هـ - رعاية الموقف : لابد من ربط النص بالمقام ، فالنص يكون متأثرا بالموقف مراعيا له قادرا على التأثير فيه .

و -التناص : يتضمن النص علاقات مع نصوص سابقة بسبب حركتي التأثير والتأثر ، ذلك أن أي نص لا ينطلق من فراغ ، بل يتفاعل مع غيره من النصوص لإنتاج جديد.

ز -الإعلامية : لكل نص درجة معينة صغرى أو كبرى من الإعلامية فلا يمكن أن نصا دون محتوى أو دلالة ، لأن النص يهدف إلى إيصال دلالات إلى المتلقي ، ومن هنا ترتبط الإعلامية ببنية النص من خلال المنظور الوظيفي .

ولقد أدرك اللغويون و منهم أخص البلاغيين أن النص يجب أن يكون وحدة واحدة ،و عبروا عن ذلك بمصطلحات مثل "جودة السبك" التي ذكرت مرارا في البيان و التبيين أو "الإتساق" الذي قد تكلم عنه الجرجاني .

4- النظرية التداولية:

جاءت النظرية التداولية كمنهج مهمته تفعيل النظام اللغوي بإعطائه وظيفة تواصلية ، هذا المنهج التداولي كانت منطلقاته فلسفية خاصة منها الفلسفة التحليلية التي ترى في الألفاظ أنها ترتبط بالممارسات التي نحياها.

تعريف التداولية: هي نظرية تدرس علاقة العلامات اللغوية بمستخدميها من بني الإنسان ،فليست اللغة بأي حال من الأحوال شيئا مخزنا في المعاجم وكتب النحو ،بل هي شيء متصل بين بني الإنسان[7]، يعرفها الأستاذ مسعود صحراوي قائلا :« إنها مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه ، وطرق و كيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح والسياقات و الطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب،و البحث عن العوامل التي تجعل الخطاب رسالة تواصلية واضحة و ناجحة و البحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية»[8]فالمهمة الأساسية التي تقوم عليها التداولية هي تفسير العلاقة بين العلامات المستخدمة في الخطابات و مستعمليها في السياقات التواصلية المختلفة .

4-1 الأفعال الكلامية :

يعتبر جون أوستين هو المؤسس لنظرية الأفعال الكلامية في كتابه:"HOW TO DO THINK WITH WORDS" والذي ترجم بالفرنسية :"QUAND DIRE C'EST FAIRE" ،فقد كانت اللغة في نظر الفلاسفة قبله تمثل وصف وقائع العالم وصفا إما صادقا و إما كاذبا ،وهذا ما اعتبره أوستين "مغالطة وصفية"[9]،بل إن هناك أفعالا تنجز في الواقع وتبدل قناعات الأفراد بمجرد التلفظ بها فـ«إحداث التلفظ هو إنجاز لفعل و إنشاء لحدث»[10].ثم بعد أوستين جاء سيرل الذي بين مستوى التأثير على الواقع بواسطة اللغة من خلال انتقاء بعض العبارات (الأفعال الكلامية)التي تلعب دورا في مسألة التأثير على المتلقين،على أساس أن الكلام فيه قوة إبلاغية كامنة في التلفظ ذاته،وقوة أخرى تأثيرية على مستوى المتلقي تتجلى من خلال النتائج المنجرّة عنه،ومنه اقترح سيرل خمسة تصنيفات للأفعال الكلامية[11]:

1- الأخبار:وهي تمثيل للواقع
2- الأوامر:حمل المخاطب على فعل معين
3- الالتزامية: أفعال التعهد
4- التصريحيات: أو التعبيريات و هي التعبير عن حالة
5- الانجازيات : منها: الوعد والطّلب.

و سنبين في مقالنا هذا بعض الأمثلة التي تظهر تجليات الدرس التداولي المعاصر لدى العلماء العرب، فقد كانت دراساتهم تلامس المفاهيم ذاتها و إن اختلفت المصطلحات.

4-1-1: عبد القاهر الجرجاني:

عبد القاهر الجرجاني هو : أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجُرْجَانِيّ(400/471 هـ) . نحوي ومتكلم، وُلِد في جرجان أخذ العلم عن أبي الحسين محمد الفارسي ابن أخت الشيخ أبي علي الفارسي كما أخذ الأدب على يد القاضي الجرجاني له: "إعجاز القرآن" و"الرسالة الشافية في الإعجاز" و"دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" وقد أورد في كتابيه الأخيرين، معظم آرائه في علوم البلاغة العربية، توفي عبد القاهر الجرجاني سنة 471 هـ..

يعد عبد القاهر من بين أبرز البلاغيين الذين لهم جهود لسانية واضحة، فبحثه اللساني يعنى بفكرة الانسجام و الاتساق في النص فهو يرى و يؤكد على أن النص القرآني لا بد أن ينظر إليه بنظرة كلية متماسكة، قائلا بذلك عن القرآن : « تأملوه سورة سورة و عُشرا عُشرا و آية آية فلم يجدوا في الجميع كلمة تنبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى وأخلق بل وجدوا اتساقا أبهر العقول و أعجز الجمهور نظاما والتئاما وإتقانا وإحكاما»[12]، فالإعجاز و بلاغة الكلام عند عبد القاهر الجرجاني يتجلى في الصلة التي تكون بين الألفاظ و ارتباط بعضها ببعض ليتكون نسيج الكلام بصياغة تركيبة محكمة تتوخى الإفصاح عن المعنى ضمن نظام نحو مضبوط يقول الجرجاني :« واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر و يغمض المسلك في توخي المعنى الذي عرفت أن تتخذ أجزء الكلام ويدخل بعضها في بعض ويشتد ارتباط ثان منها بأول و أن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا » [13].

إن اهتمام عبد القاهر الجرجاني كان منصبا حول الإعجاز القرآني ببيان تحليل الآيات و السور، فدراسته كانت صورة للدراسات النصية المعاصرة وهذا من خلال معالجته للقضايا النحوية من الوجهة البلاغية حيث يهتم بالمعاني التي تؤديها الألفاظ عندما تكون بتركيب معين، يقول الجرجاني في هذا الشأن : « إن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، و أن الألفاظ تثبت لها هذه الفضيلة و خلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها »[14] ويقول عن نفس الفكرة في موضع آخر من الدلائل : « و جملة الأمر أنَّا لا نوجب الفصاحة للفظة مقطوعة مرفوعة من الكلام الذي هي فيه لكننا نوجبها لها موصولة بغيرها ومعلق معناها بمعنى الذي يليها»[15]، فقيمة اللفظة مفردة لا تنبع من معناها المعجمي فحسب، بل تناسبها مع ما يجاورها سابقا ولاحقا، وتناسبها مع السياق الدلالي، هما اللذان يمنحانها الفضل، فلا يظهر جمال التعبير في بعض النصوص و القصائد إلا بتأمل النص كاملا، و بهذا تجلى الدرس اللساني بيِّنا في تأليف الجرجاني ،فأغلب المعاني المعبر عنها في لسانيات النص وجدنا منها نصيبا مدروسا خاصة في "دلائل الإعجاز"، وهذا من ناحية لسانيات النص.

أما الجانب التداولي، فيتفق معظم الباحثين و الطلبة أن اسم عبد القاهر الجرجاني يرتبط بنظرية النظم، وإن كان قد تطرق إليها عديد العلماء، إلا أنها صارت — بالتعبير المعاصر – علامة مسجلة باسمه مما يعني أننا سنبين و نثبت ما لهذه النظرية من سبق و إلمام بكثير من القضايا الراهنة التي تناولتها اللسانيات المعاصرة و منها التداولية، إذ يهتم الاتجاه التداولي بجملة من ميادين المعرفة المختلفة أهمها : علم اللغة، البلاغة، المنطق، فلسفة اللغة، وكذلك علم الاجتماع، وغيرها من العلوم، وهذا ما نجده مثبتا في مؤلفات عبدالقاهر الجرجاني فقد تناول الدرس اللغوي بطريقة تحاور معرفيا الدرس اللساني المعاصر، فقد أبدى رعايته للمعنى، و اهتم بعلاقة اللفظ بالمعنى و بمقصدية المتكلم مع ربط ذلك بالمتلقي، كما اهتم بالجانب الاجتماعي للغة، من حيث التركيز على السياق اللغوي و المقامي، حيث يلعب ذلك دورًا كبيرًا في توضيح المعنى وأغراض المتكلم، و من ذلك ما يتعلق بأفعال الكلام، فقد تطرق الجرجاني إلى الأقسام التي حددها أوستين ، و التي هي أقسام ثلاثة: أ- فعل القول ،ب- الفعل المتضمن في القول ، ج- الفعل الناتج عن القول.

يعرف فعل القول أنه : « إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم، و ذات دلالة»[16] ، ففعل القول في أفعال الكلام يتضمن أفعالا لغوية، تبنى بعدة مستويات، أولها المستوى الصوتي و التركيبي و الدلالي، فهذه المستويات قد أشار إليها الجرجاني بنفس

الدلالات و نفس المفاهيم وإن اختلفت المسميات باختلاف الزمن و الفكر، فاعتباطية العلامة بين الدال و المدلول التي أشار إليها د سوسير، قد أجاد فيها قبله الجرجاني قائلا : « نظم الحروف هو تواليها في النطق، و ليس نظمها بمقتضى عن معنى، و لا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه، فلو أن واضع اللغة كان قد قال ربض مكان ضرب لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد»[17] ، فالفعل الصوتي الذي هو التلفظ بسلسلة من الأصوات المنتمية إلى لغة معينة، ثم يأتي المستوى التركيبي، فأما « الفعل التركيبي فيؤلف مفردات طبقا للغة معينة[18]» ، و هو ما عبر الجرجاني خاصة في كتابه دلائل الإعجاز بنظم الكلام، أي انتظامه كنسيج منسجم، يقول عبد القاهر :« و أما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، و ترتبها على حسب ترتب المعاني في النفس، ... و لذلك كان عندهم نظيرا للنسج و التأليف و الصياغة و البناء و الوشي و التحبير و ما أشبه ذلك.»[19]، و أما عن الفعل الدلالي فهو : « توظيف هده الأفعال حسب معان و إحالات محدد»[20] ، فيكون الفعل الدلالي يقابل عند عبد القاهر الجرجاني ما أطلق عليه معاني النظم، و معاني النظم هده إنما هي ناتجة عن استعمال الفعل اللفظي أو ما يطلق عليه الجانب الصوتي إضافة إلى الجانب التركيبي فهما : « خادمان للمعاني ، أي للفعل الدلالي »[21] و مما يثبت هذا الكلام قول الجرجاني في كلامه عن البيت القائل (قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل) حيث تكلم شارحا : « و إن أردت أن ترى ذلك عيانا ، فاعمد إلى أي كلام شئت وأزل أجزاءه عن مواضعها، وضعها وضعا يمتنع معه دخول شيء من معاني النحو فيها، فقل:في (قفا نبك من ذكرى حبيب و منزل): (من نبك قفا حبيب ذكرى منزل) ، ثم انظر هل يتعلّق منك فكر بمعنى كلمة منها؟ »[22] ، فالشيخ عبد القاهر الجرجاني يقصد أن الكلام من غير نظم، يساوي الفعل الصوتي فقط، و هذا من تقسيم أوستين الذي ذكرنا، فإذا انتفى النظم و الألفاظ فعندها لن يبقى لدينا سوى فعل صوتي، فالفعل الصوتي و اللفظي لا معنى لهما دون وضعهما في تركيب ذي دلالة[23] ، يقول أوستين : « لو أن فردا أخرج صوتا يشبه (اذهب) لما اعتبر فعلا لفظيا، فكل فعل لفظي هو بالضرورة فعل صوتي، لكن العكس ليس صحيحا ... وعلى ذلك في العبارات المشهورة في قصة الفتاة، نجد تركيبا نحويا صحيحا :(ضرب من الحيوان المسمى بالغرير يطحن الهواء) »[24] نرى أن النصين متطابقان، فما تكلم عنه أوستين من بيان أنه رغم وجود سلامة في الفعلين الصوتي و اللفظي، و سلامة التركيب النحوي ، مع وجود كلمات ذات دلالة معجمية، لا قيمة له دون الفعل الدلالي الذي يعطيه معنى يرغب المتكلم في إيصاله، هذا الكلام هو عينه كلام الجرجاني في تفصيله لبيت (قفا نبك) الذي بين أنه رغم السلامة المعجمية و السلامة النحوية، إلا أنه يحتاج إلى نظم يربط العلائق بين المكونات اللفظية للوصول إلى المعنى المراد، ثم يواصل الجرجاني كلامه مبينا تعلق معاني النحو بترتيبها الحقيقي في النفس، فيقول : « لو القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس، ثم النطق بالألفاظ على حذوها، لكان ينبغي ألا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه، لأنهما يحسان بتوالي الألفاظ في النطق إحساسا واحدا »[25] فالعلاقة بين الألفاظ و المعاني التي يرومها المتكلم و يتلقفها السامع تحتاج إلى ترتيب عقلي، مع صحة الجملة نحويا، ومقبوليتها دلاليا، وهذا يكون مكافئا لما سمي في نظرية أفعال الكلام ب" فعل القول".

أما عن الفعل المتضمن في القول فهو الفعل الإنجازي الحقيقي، فهو عمل ينجز بقول ما ، فهو يتعلق بالقوى الإنجازية للوظائف اللسانية الثانوية، كالسؤال و الوعد و الأمر، يعني القيام بفعل ضمن قول شيء[26]، و لإثبات ما نحن عازمون على تحقيقه من بيان السبق للجرجاني في كثير من المفاهيم اللسانية، سنورد نصوصا لعبد القاهر، وأخرى لأوستين، ونقارن مضامينها.

يقول أوستين في نظرية أفعال الكلام العامة:« إن التلفظ بكلمات معينة أكثر مما يمكن أن يكون أداء لأمر باطني نفسي مغاير، و هو الكلام النفسي المغاير لما تدل عليه في الخارج الألفاظ الموسوعة الدالة، و يكاد يكون من الصعب البرهنة على ذلك، إلا أنه يجب أن أدعي أن هذا أمر واقعي يشهد له العيان »[27] يؤكد أوستين في هذه الفقرة أن المتلقي لا يستطيع أن يفهم كلام المخاطِب إلا من خلال القرائن و السياقات التي يُلقى فيها القول، و التي تُبدي المعاني الكامنة في النفس، فيتبين للطرفين معنى الخطاب أهو أمر أم تحذير أم نصيحة...

إن هذه المعاني التي بينها أوستين عن مفهوم الفعل المتضمن في القول، تتطابق مع أتى به الجرجاني قبله بتسعة قرون، وهذا من ما بينه خلال تطرقه لنظرية النظم عن فكرة (معنى المعنى) يقول عبد القاهر: « و إذ قد عرفت هذه الجملة، فههنا عبارة مختصرة، و هي أن تقول المعنى، و معنى المعنى ، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ و الذي تصل إليه من بغير واسطة، و معنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر»[28]،فقد وضح عبد القاهر أن دور الكلمة من ناحية تشكيلها الصوتي وبنائها التنظيمي النحوي لا يؤدي معنى دلاليا إلا إن تم توخي معاني النحو للوصول إلى دلالات و إنجاز أفعال تكونت قبلا في نفس المتكلم، إذ نجد الجرجاني يوضح ذلك أكثر بقوله : « أن العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالّة عليها في النطق[29]» فأساس النظم عند الجرجاني هو المعنى الذي يريده المتكلم في نفسه بتوالي الألفاظ بتراكيب متناسقة ذات دلالة وفق ما يمليه السياق و مقتضى الحال، و هذا ما يوازن الفعل المتضمن في القول في أفعال الكلام.

أما عن الفعل التأثيري أو الفعل الناتج عن القول : «الذي بواسطته يحدث وجوبًا رد فعل وتأثيرًا لدى المخاطب[30]» و يهو تابع أو حصيلة لفعل القول و الفعل المتضمن في القول أي الفعل الناتج عن القول هو : « الآثار المترتبة عن الفعل الإنجازي »[31].

4-1-2: الأفعال الكلامية عند السكاكي:

تتمركز نظرية الأفعال الكلامية عند السكاكي باهتمامه بالأساليب الإنشائية من حيث البنية و المقاصد ،و هذا ما يتجلى في علم المعاني على الخصوص ،يعرف السكاكي علم المعاني بأنه: « تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ،ليتحرز بالوقوف عيها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره »[32]، فقيمة اللغة عنده تكون بمقدار الفائدة التي ترجى بالتلفظ أي ما ينتظر فعله من خلال اللغة ،وهذا جوهر نظرية أفعال الكلام .

وبالنسبة للأساليب الإنشائية فقد اهتم السكاكي بتقسيمها إلى ضربين :إنشاء طلبي و إنشاء غير طلبي ،يقول في هذا الشأن : « و الطلب إذا تأملت نوعان نوع لا يستدعي في مطلوبه إمكان الحصول...و نوع يستدعي فيه إمكان الحصول »[33] ومن أساليب الإنشاء الطلبي :التمني ، الاستفهام ،النهي ،الأمر، و من أساليب الإنشاء غير الطلبي المدح والذم ، وفي بحثنا هذا سنتطرق إلى العناصر المرتبطة بالانشاء الطلبي.

أ- الاستفهام

الأدوات الانجازية للاستفهام هي :الهمزة، و أم ، وهل ، وما ومن، وأي، و كم، كيف، وأين، وأنى، متى، وأيان، هذه الأدوات منها ما يختص بالتصور و منها ما يختص بالتصديق فـ:« طلب التصور مرجعه إلى تفصيل المجمل أو إلى تفصيل المفصل، و إذا تأملت التصديق وجدته راجعا إلى تفصيل المجمل أيضا، وهو طلب تعين الثبوت أو الانتفاء في مقام التردد»[34].

ففي التصور يكون المتكلم خالي الذهن من أي فكرة حول المستفهم عنه، أما في التصديق و الذي هو طلب حصول نسبة بين الشيئين؛ مما يعني أنه يجب أن يكون لدى المتكلم فكرة مسبقة عن الموضوع المستفهم عنه و يند رج ذلك ضمن ما أسماه" سيرل معيار الشروط المعدة préparatoire condition

فمثال التصور نقول "أنجح الطالب؟" ومثال التصديق قولنا"هل نجح الطالب"،وهكذا لكل أداة وظيفة أصلية تؤديها في الاستفهام ،لكن قد يتولد منها معاني جديدة حسب المقام و الحال ، مثلا (ما) قد تفيد "الاستخفاف والتحقير" في مثل قول":ما هذا ؟ ومن هذا ؟، كما تفيد"التعجب "كمثل قوله تعالى، حكاية عن سليمان : ﴿ مالي لا أرى الهدهد ﴾.

كما تفيد كم الاستبطاء "في مثل قولك" :كم دعوت؟، أو كم تدعونني؟ التي تفيد "الإنكار" و قد تفيد أيضا" التهديد "مثل قولك" :كم أحلِم؟.

هذه" المقاصد والإفادات تعتبر "أفعالا كلامية " أو" قوى إنجازية" ناتجة أو متولدة عن الطلب الأصلي"الاستفهام"؛ فهي تختلف حسب "مقامات الكلام"، وهنا يتجلى البعد التداولي لمعاني هذه الحروف.[35].

ب– النهي:

يقول السكاكي: « للنهي حرف واحد وهو " لا " الجازم في قولك : لا تفعل، والنهي محذو به حذو الأمر في أن أصل استعماله : " لا تفعل "، أن يكون على سبيل الاستعلاء بالشرط المذكور، فإن صادف ذلك، أفاد الوجوب، وإلا أفاد طلب الترك فحسب، ثم إن استعمل على سبيل التضرع كقول المبتهل إلى الله: لا تكلني إلى نفسي، سمي بالدعاء،و إن استعمل في حق المساوي الرتبة لا على سبيل الاستعلاء سمي التماسا، وإن استعمل في حق المستأذن سمي إباحة ،وإن استعمل في مقام تسخط سمي تهديدا »[36].

إذن: للنهي أداة إنجازية واحدة هي "لا" الجازمة، كما يرى السكاكي، فالنهي يشبه الأمر، وذلك في اشتراطه الاستعلاء، أيضا يضيف لأنه إذا وافق هذه الشروط، أي الصيغة اللغوية بالإضافة إلى الشرط التداولي" الاستعلاء "وجب ضرورة تحقيق هذا الطلب من قبل المخاطَب، إلا أفاد طلب الترك فحسب.فعند خرق شرط الاستعلاء وصدور الطلب ممن هو أقل مرتبة من مخاطبه، و في مقام أو قصد التضرع، كقول المبتهل إلى الله":لا تكلني إلى نفسي"ولدت فعلاً كلامياً هو "الدعاء"، و إن استعمل في حق المساوي الرتبة ولـدت" الالتماس " و يختلف بحسب المقامات، فإن استعمل في مقام الإذن نتج عنها مايسمى بـ "الإباحة"، و"التهديد "إن استعمل .في مقام تسخط .

يمكنا القول بأن الفعل الكلامي الأصلي "النهي "ينتج عنه أيضا" أفعالاً متضمنة في القول"؛مثل :الدعاء والالتماس و الإباحة، ويكون ذلك إثر خرق الشروط المعدّة للفعل الأصلي أو اختلاف مقاصد أو مقام الكلام.

ومن كلامنا السابق نجد أن من بذور الدرس اللساني التداولي ما هو مبثوث في التراث البلاغي العربي خاصة ما تعلق بأطراف الخطاب خاصة المتكلم والسامع و الشروط التواصلية لتحيق الإفادة من الكلام.

4–1–3: الجاحظ و الدرس اللساني:

لعل من أبرز البلاغيين الذين كانوا سباقين في الدرس اللغوي ،من خلال ما تركوه من أفكار ونظرات للوقائع الفلسفية واللغوية و البلاغية نجد « الجاحظ » و هو عمرو بحر الكناني البصري المكنى بأبي عثمان 160- 255هـ

، الذي استطاع أن يبلور أفكارا جديدة تقلد بها وسام السبق وأصبحت شاهدا على عبقريته عبر التاريخ، فقد اهتم بفروع لغوية تدرس في خانة «الدراسات الأكثر حداثة في علم اللسان »[37] فالجاحظ و حسب حلمي خليل نجح في أن يقدم «و ربما أول مرة في تاريخ الفكر اللغوي الإنساني الأصول النظرية و التحليلية لعلم اللغة الاجتماعي »[38] وهنا يتجلى الدرس اللساني بل و السبق إليه في كتابات الجاحظ.

نظرية التواصل عند الجاحظ:

احتفت المدرسة الوظيفية بزعامة رومان جاكبسون بالدّراسات التواصلية حيث عُدّ الجانب التواصلي هو الغاية القصوى من اللّغة ذاتها، وتمكّن علماء اللغة من تحديد وظائف اللّغة والأطراف والعوامل المكوّنة للفعل التواصلي على نحو ما نجده لدى جاكبسون: المرسل – المرسل إليه– الرسالة – المقام –الاتّصال– السنن[39].

تمثّل كلّ حلقة من هذه الحلقات الست وظيفة معيّنة. حيث ترتبط الوظيفة الانفعالية بالمتكلّم. أمّا المتلقي فتناط به الوظيفة الإفهامية، وأمّا الرّسالة فتخصّها الوظيفة الشعرية، وتتحدد الوظيفة المرجعية من خلال الإحالة على السياق، و أمّا الوظيفة اللغوية فمجالها الواقعة الإبلاغية المحافظة على أداة الاتّصال، وقد أكّد الجاحظ أن الوظيفة الإفهامية قائمةٌ على الفهم والإفهام كشرط أساسي لكل خطاب لُغوي، وهو ما نلمسه في قوله : « وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل، يكون إظهار المعنى، وكلما كانت الدلالة أوضحَ وأفصحَ، وكانت الإشارةُ أبينَ وأنورَ، كان أنفعَ وأنجعَ (...)، والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى (...)؛ لأن مدار الأمر والغايةَ التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام»[40]

إنّ هذا التصوّر الشامل الذي قد وقف عليه الجاحظ واستوعبه بدقّة وإحكام ليبرز مدى جدية البلاغيين من أهل الإسلام في خدمة القرآن بنظرة سبقت علمهم إلى عالم معاصر يحتفي بفكر قد يراه جديدا عليه.

5–خاتمة:

أسهم علماء العربية منذ ظهور الإسلام في خدمة كتاب الله العزيز، المنزل بلسان عربي مبين، ومنهم علماء البلاغة أمثال الجاحظ و السكاكي و الجرجاني و غيرهم،وهذا بالسعي لفهم القرآن و الإسلام،و في نهاية بحثنا هذا وصلنا إلى نتائج عديدة نذكر أهمها:

- الجهود اللغوية و البلاغية لعلماء العربية تميزت بالجدية و العمق، لأنها ترتبط بحفظ اللسان العربي من اللحن ، وهذا لفهم القرآن الكريم.
- إن البحث اللغوي العربي زاخر بالإشارات التي توحي بأنه منظم بطريقة منهجية تجعله يكافئ معرفيا للبحث اللغوي المعاصر.
- يسبق علماء العرب علماء اللسانيات المعاصرة و منها التداولية في كثير من المفاهيم التي صارت عماد الدرس اللغوي.
- يمكن للباحث العربي أن يخرج مكنونات الدرس البلاغي في التراث العربي بمقارنته بالبحث اللغوي المعاصر.
- مؤلفات و دواوين البلاغيين العرب انطوت على مضامين و طروحات تقترب إلى حد بعيد ما أقرته الدراسات اللسانية المعاصرة.
- تبدو مفاهيم اللسانيات النصية جلية في أبحاث البلاغيين العرب قديما و حديثا.
- ركزت الدراسات اللسانية لدى البلاغيين على أطراف العملية التواصلية و العلاقات القائمة بينها فجرى بحثهم مجرى التداولية المعاصرة.

وفي الأخير ما يمكن قوله على سبيل الإجمال أن للبلاغيين العرب قديما و حديثا دور بارز في الحركة الفكرية العربية اتركت بصمات لا يمكن نسيانها بتغير العصور والأزمان وبقيت شاهدة على رجال أفنوا أعمارهم من أجل نصرة هدفهم الذي هو خدمة القرآن الكريم.

الهوامش:

[1] شفيقة العلوي :محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة ،أبحاث للنضر و لترجمة و التوزيع،ط1،2004،بيروت لبنان ص9

[2] ينظر:فيرديناند دي سوسير :محاضرات في اللسانيات العامة،تر:يوسف غازي و مجيد النصر،المؤسسة الجزائرية للطباعة ،ط1، 1986 ،

[3] فندايك : النص بنى ووظائف مدخل أولي إلى علم النص ، ترجمة : منذر عياشي ، ضمن كتاب العلمانية وعلم النص ، المركز الثقافي العربي ،ط1، 2113م ، بيروت ، ص 337 :، العلمانية وعلم النص ، المركز الثقافي العربي ،

[4] عدنان بن ذريل :النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق (دراسة) ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب ، الإسكندرية ، مصر،(دط)، 2000 ، ص37

[5] رابح بوحوش : الاسلوبيات وتحليل الخطاب ، مديرية النشر، جامعة باجي مختار ، عنابة ،الجزائر، (دط)،2008 ،ص85

[6] الدراجي فاضل:الخطاب اللساني عند الجاحظ،مذكرة ماستر 2012 .2013 جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي ،ص33.إلى 38

[7] ينظر :واضح أحمد،إشراف لزعر مختار،الجطاب التداولي في الموروث البلاغي ،رسالة دكتوراة 2011–2012 ،ص93

[8] مسعود صحراوي : التداولية عند العلماء العرب ،دراسة تداولية اظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي،دار الطليعة،بروت،،2005 ،ط1، ،ص5

[9] ينظر:محمود أحمد نحلة :آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر،ص 43

[10] جون أوستين نظرية أفعال الكلام العامة،تر:عبد القادر قنيني،إفريقيا الشرق،الدار البيضاء1991،ص17

[11] خليفة بوجادي:في اللسانيات التداولية محاولة تأصيلية فيالدرس العربي القديم،ط2008،1،بيت الخكمة،العلمة الجزائر،ص،99

[12] عبد القاهر الجرجاني:دلائل الإعجاز،المكتبة العصرية،ط2،بيروت لبنان 2003 ن ص39

[13] نفسه :ص 137

[14] الجرجاني : دلائل الاعجاز ص 420

[15] نفسه ص259

[16] مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص 41

[17] عبالقاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، قرأه و علق عليه: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1984، 49.

[18] مسعود صحراوي :التداولية عند العلماء العرب،ص 41

[19] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص49.

[20] مسعود صحراوي :التداولية عند العلماء العرب،ص 41

[21] هشام عبد الله الخليفة: نظرية الفعل الكلامي، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 2007، لبنان، ص 82.

[22] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص410.

[23] هشام عبد الله الخليفة:نظرية الفعل الكلامي، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 2007، لبنان، ص82.

[24] ينظر : أوستين : نظرية أفعال الكلام العامة، 116، 117.

[25] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص51.

[26] ينظر مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، ص 42

[27] أوستين : نظرية أفعال الكلام،24

[28] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز،ص 263.

[29] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ص، 45

[30] الجيلالي دلاش: مدخل إلى اللسنيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، ص24.

[31] مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب،ص 43.

[32] السكاكي :أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي ،تح:عبد الحميد هنداوي ،دار الكتب العلمية،ط1، بيروت،2000ص247

[33] السكاكي مفتاح العلوم ،ص 170

[34] السكاكي:مفتاح العلوم ،ص 418

[35] ينظر:البعد التداولي للبلاغة العربية:ص150 إلى156

[36] السكاكي:مفتاح العلوم 429.

[37] حافظ اسماعيل علوي :اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة،دار الكتاب الجديد المتحدة،ط1 ، 2006، بيروت–لبنان، ص 173.

[38] حلمي خليل :دراسات في اللسانيات التطبيقية،دالر المعرفة الجامعية،،الاسكندرية،2000م، ص154

[39] قضايا الشعرية، رومان جاكبسون، ترجمة:محمد الولي،ومبارك حنون، الدار البيضاء، ط:01، 1988، ص:27

[40] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ؛ البيان والتبيين؛ دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان، ص:43/42.

1– مراجع البحث:

1. أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط1987،2، بيروت لبنان
2. الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ:

البيان و التبيين،تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1998م، ط7، ج1 .

الحيوان ، تحقيق: عبد السلام هارون ط2،شركة مكتبة و مطبعة مصطفى البابي الحلبي و أولاده، مصر، 1969،ج 1

3. الجيلالي دلاش : مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ،2001.
4. الدراجي فاضل:الخطاب اللساني عند الجاحظ،مذكرة ماستر 2012 .2013 جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي
5. جون أوستين: نظرية أفعال الكلام العامة، كيف نصنع الأشياء بالكلمات، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، دط، 1991
6. حافظ اسماعيل علوي :اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة،دار الكتاب الجديد المتحدة،ط1 ، 2006، بيروت–لبنان
7. حلمي خليل :دراسات في اللسانيات التطبيقية،دالر المعرفة الجامعية،،الاسكندرية،2000م
8. خليفة بوجادي:في اللسانيات التداولية محاولة تأصيلية فيالدرس العربي القديم،ط2008،1،بيت الخكمة،العلمة–الجزائر
9. رابح بوحوش : الاسلوبيات وتحليل الخطاب ، مديرية النشر، جامعة باجي مختار ، عنابة ،الجزائر، (دط)،2008
10. رومان جاكبسون، قضايا الشعريةترجمة:محمد الولي،ومبارك حنون، الدار البيضاء، ط:01، 1988
11. فندايك : النص بنى ووظائف مدخل أولي إلى علم النص ، ترجمة : منذر عياشي ، ضمن كتاب العلمانية وعلم النص ، المركز الثقافي العربي ،ط1، 2113م ، بيروت .
12. فيرديناند دي سوسير :محاضرات في اللسانيات العامة،تر:يوسف غازي و مجيد النصر،المؤسسة الجزائرية للطباعة ،ط1.
13. هشام عبد الله الخليفة: نظرية الفعل الكلامي، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 2007، لبنان
14. عبد القاهر الجرجاني:دلائل الإعجاز،المكتبة العصرية،ط2،بيروت لبنان 2003
15. عدنان بن ذريل :النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق (دراسة) ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب الإسكندرية
16. مسعود صحراوي : التداولية عند العلماء العرب ،دراسة تداولية اظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي،دار الطليعة،يروت،،2005 ،ط1